

Moustaoui Srhir, Adil (2017). *Sociolinguistics of Moroccan Arabic: New Topics*. Bern: Peter Lang Publishing; pp. 158.

Paula Santillán Grimm, PhD  
Adjunct professor of Arabic language  
Department of Humanities  
Universitat Pompeu Fabra (Barcelona)

يدرك المصور المحترف صعوبة التقاط صورة ذات نطاق حركي عالٍ، أي ذات تباين عال بين الأضواء والظلال. وقد يصبح هذا الأمر محبطاً للغاية إذا كان المصور هاويا لأن الصور الملتقطة بأجهزة التصوير العادية تختلف اختلافا كبيرا عما تراه عين الإنسان. غير أنه لو كنا سنطبق هذه الاستعارة على مشهد علم اللغويات الاجتماعية المغربية لاعتبرت صور عادل المستوي صورا احترافية، بحيث نجح نجاحا تاما في تقريب الواقع الملحوظ وتصويره بدقة.

منذ بداية ما يسمى بالربيع العربي سنة 2010، سجلت عدة مناطق في العالم العربي تحولات سياسية وتاريخية شملت جوانب اجتماعية مترابطة. وتعتبر اللغة جانبا من هذه الجوانب وبالتالي قد يثمر مضمار اللسانيات العربية ثمارا علمية مزهرة. إلا أن حجم وطبيعة العمليات المذكورة من المستحسن "تصويرها" كوحدة متشابكة، وذلك تفاديا للتعامل معها بشكل جزئي. في كتابه "اللسانيات الاجتماعية للربية المغربية"، يقوم الأستاذ عادل المستوي (جامعة كومبلوتينسي بمدريد) بتحليل أركان "السوق اللغوية المغربية" - هكذا يسميها المؤلف - بطريقة دقيقة وغير معقدة، حيث يهدف الباحث إلى شرح التغيرات على المستوى اللغوي- الاجتماعي التي تعرفها العربية المغربية المعاصرة.

يجدر بالذكر أن منشورات الأستاذ المستوي كانت تتطرق من قبل في معظمها إلى موضوع التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية، اللغويات الاجتماعية والتعددية اللغوية في المغرب وأولها يعود إلى سنة 2003. أما هذا الكتاب، فصدر عن سلسلة اللسانيات لدار نشر بيتر لانغ (2017) ويحتوي على ثمانية فصول وفصل تاسع للمناقشة والاستنتاجات. وفي كل فصل، يعالج الباحث المواضيع بشكل تدريجي ويحللها تحليلًا عميقًا. ففي بداية كل فصل، يقدم خبير اللسانيات الاجتماعية النظرية التي يتبعها، بل يوضح خلال الكتاب كذلك المصطلحات والمفاهيم التي يستعين بها لتحليل كل المواضيع.

ينقسم الكتاب إلى قسمين رئيسيين. ففي القسم الأول (من الفصل الأول إلى الثالث)، يركّز المؤلف على المواضيع الأكثر تكرارا ومناقشة في اللغويات الاجتماعية: مفاهيم اللغة والعامية والنمط اللغوي، الاستمرارية اللغوية، والتعددية اللغوية. أما من الفصل الرابع إلى الثامن، يركز الباحث على مواضيع ذات علاقة مباشرة بالمشهد اللغوي-الاجتماعي والسياسي في المغرب: التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية، معيرة العربية المغربية انطلاقا من نماذج وأنواع مختلفة من الأدب المكتوب بالعربية المغربية، إلخ.

يكرّس الباحث الفصل الأول لإعادة تعريف مفهومين كلاسيكيين في مجال اللغويات الاجتماعية وهما اللغة والعامية. يؤكد الباحث على فكرة أن المعايير اللغوية غير كافية للتفريق بين المفهومين وأنه لا بد من اللجوء إلى معايير ذات صلة بالإيديولوجيا والسياسة والجغرافيا والتاريخ للوصول إلى تعريفهما بصورة تعكس واقع اللغة كظاهرة اجتماعية واستعمالاتها اليومية. ويقدم المؤلف أهم أفكار هذا الفصل في نهايته حيث يوضح أن الواقع اللغوي الحالي في المغرب يعكس أمرين: أولا، وجود علاقة بين مجموعتين من اللغات، من جهة كل المنوعات اللغوية المحكية للدارجة المغربية والأمازيغية بلهجاتها الثلاث، ومن جهة أخرى، الفصحى والفرنسية والإنجليزية والإسبانية. وثانيا، يشير الباحث إلى أن واقع وطبيعة هذه العلاقات لا يعكس حالة ازدواجية لغوية، بل حالة خضوع وتبعية بين الدارجة المغربية واللغات الممعية.

في الفصل الثاني "يلتقط" المستوي صورة لواقع التعددية اللغوية في مغرب اليوم. فخلال 22 صفحة، يقدم للقارئ الوضعية السوسiolغوية لكل من العربية المغربية والأمازيغية بلهجاتها المحلية (تمازيغت وتريفت وتشلحيت) والعربية الفصحى والعربية الكلاسيكية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية واليهودية المغربية والحاكتية (أي اللغة الإسبانية اليهودية).

عنوان الفصل الثالث "الإيديولوجيات اللغوية واللغة العربية والدولة الوطنية"، وفيه يدرج خبير اللسانيات الاجتماعية المستوي مفهوم الإيديولوجيا للكشف عن دورها في التعاطي للتنوع اللغوي، التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية والخطاب الذي يُنتج حول هذه المواضيع. ينطلق الباحث من مراجعة أهم النظريات عن الإيديولوجيا، من ماركس إلى وولارد، مروراً بشيفيلين وغرامشي وألثوسير وفاندايك وآخرين. وموقف المستوي هو أن الإيديولوجيا ليست مجموعة من الأفكار والمعتقدات، بل هي عبارة عن ممارسات مبنية ومتطورة تتسبب في نتائج تؤثر مباشرة على الديناميكيات اللغوية-الاجتماعية، كما تحوّل الواقع المادي والرمزي للغات.

يمثل الفصل الرابع نقطة تحول في كتاب المستوي. فبعد الحصول على بعض العدسات الأساسية للتصوير المحترف، يشعر القارئ بأنه جاهز للدخول في مشهد أعمق. كما يعرف الجميع، سجل المشهد اللغوي المغربي عدة تغيرات جوهرية قبيل 2011. وفي هذا الصدد، كان عام 1999 حاسما للغاية لسببين:

أولا تربّع محمد السادس على العرش في المغرب؛ ثانيا، خلال ثنائية 1999-2000، اعتُمد الميثاق الوطني للتربية والتكوين الذي حث على عملية اعتراف بالأمازيغية وتوحيدها على المدى المتوسط، وبطريقة غير مباشرة على ضرورة استعمال العربية المغربية أيضا في تدريس بعض المواد. ووفقا للباحث، تتجلى عملية تمكين العربية المغربية "في طريقتين رئيسيتين: أولاها نشوء خطاب يدافع على العربية المغربية كلغة وطنية، والثانية انتشار نطاق استخدامها واستعمالها في مجالات أخرى" (ص. 65).

في ما يخص الطريقة الأولى، تتجسد في عدة أمثلة فردية واجتماعية حيث نجد أمثلة متميزة أيضا ضمن المجالات العامة والأكاديمية. ويذكر المستوي أسماء مثل فؤاد العروي وأحمد بنشمسي وعبد الرحيم يوسي والعديد من الأساتذة والكتاب والمفكرين والفنانين الآخرين الذين أسسوا قنواتهم الخاصة بهم (مجالات ومقالات وكتيبات وأغاني وغيرها) وذلك بغية توصيل ما يسميه المستوي مفهوم "المَغْرَبَة" (Moroccanness). أما في ما يخص الطريقة الثانية، فقد انتشر استخدام العربية المغربية انتشارا بارزا بفضل عوامل تشريعية (اعتماد الدستور الجديد) ولغوية (محاولة إيجاد طريقة لكتابة المغربية) واقتصادية (كأداة للتسويق).

إن الفصل الخامس شيق جدا من حيث كيفية تحليل الباحث للحظة تاريخية مهمة وهي الانتقال من لغة محكية إلى لغة مكتوبة "وعلى ذلك استخدام هذه اللغة في مجالات رسمية لم تُستخدم فيها سابقا" (ص. 75). يعتقد الباحث أنه لا بد من مقارنة هذه العملية باستعمال مقارنة متعددة الزوايا تشمل مثلثا مكونا من المعيرة واللسانيات والإيديولوجيا. وحول هذا المثلث تتشابه العديد من الاعتبارات يتناولها الباحث في هذا الفصل واضعا الأسئلة التالية: هل الفصحى شرط أساسي لوجود نموذج لمجتمع معاصر؟ أو: هل إثبات اللغة الممعيرة هو معيار سياسي أكثر مما هو لغوي؟

في هذا الفصل يشرح الباحث المراحل التي تمر منها عملية التوحيد: الانتقاء والتدوين والإجماع على وظائف اللغة الموحدة وقبولها والتطور والانتشار في صفوف المجتمع وإمكانية تطويرها واكتمالها اللاحق. كما يحلل توحيد العربية المغربية ضمن سياق التعددية اللغوية القائمة في المغرب بحيث يشكل مجموعة من الإيجابيات (أربع) والسلبيات (ست) المتعلقة بإنشاء عربية مغربية موحدة. ويختم المستوي هذا الفصل بنقاش حول مشروعية توحيد اللغة في الفضاء العمومي، الأمر الذي يجعله يعيد تفكيره حول الحدود اللغوية في المغرب والتقسيم الجغرافي للغات المحكية فيه.

في الفصل السادس - وهو أول فصل يستخدم فيه مصطلح "الدارجة" لتسمية العربية المغربية-، وانطلاقا من أبحاث كامينز (Cummins) (1996)، يفسر المستوي العوامل الإيجابية والسلبية التي تؤثر على عملية تمكين العربية المغربية. فمن بين العوامل الإيجابية، يميّز المستوي بين تلك التي لها طابع لغوي

(دور العربية المغربية كلغة مشتركة أو فرنكية بين الأمازيغ أو كلغة أم بين المغاربة؛ أو انتقال العربية المغربية من كونها لغة شفوية فحسب إلى لغة مكتوبة أيضا) والاجتماعية (انتشار استخدام العربية المغربية في ميادين جديدة كانت محصورة سابقا على العربية الفصحى أو الفرنسية فحسب). أما في ما يخص العوامل السلبية، فيبين المستوى القيمة الاقتصادية الضئيلة للعربية المغربية في كلا من السوق اللغوية المغربية وسوق السلع المادية والرمزية. غير أن هذا الوضع غير المتوازن بدأ يتغير في أوائل القرن الحادي والعشرين حيث استفادت الداريجة من نشاط الحركات الاجتماعية التي تدافع عنها والذي يصفه الباحث بكونه "الخطاب الاجتماعي والسياسي من أجل تمكين العربية المغربية" (ص. 91).

أما باقي أقسام الفصل السادس، فهي تتبع ترتيبا زمنيا للأحداث الاجتماعية-السياسية التي تلت وفاة الحسن الثاني. آنذاك كان خطاب الملك محمد السادس يولي أهمية كبرى للمنوعات المحلية للعربية المغربية، وخاصة المادة 5 من الدستور المعتمد سنة 2011، التي تعترف بكل من العربية والأمازيغية كلغتين رسميتين. كما ينص هذا الفصل على الحفاظ على الحسانية وتعبيرات أخرى في المغرب كجزء من الهوية الثقافية المغربية الموحدة.

في هذا الصدد، يُذكر الباحث بالعدد 34 لمجلة *Telquel* الذي نشر سنة 2002 والذي كان عنوانه "الدارجة لغة وطنية"، علاوة على ما نشر في مجلات *Telquel* و *ونيشان*، بدأت "قضية الدارجة" تشاع بفضل عوامل اجتماعية أخرى نابعة من الوسط الأكاديمي وعلى أيدي مفكرين وصحفيين وفنانين وغيرهم من عناصر المجتمع المدني في المغرب. إن هذا الجزء من الكتاب شيق للغاية بحيث يقدم أمثلة (نصوص وكاريكاتير وكلمات أغاني) للتعامل مع قضية الدارجة المغربية من طرف كل الفاعلين الاجتماعيين المعنيين. ويعتقد المستوى أن مدى تأثير هذه المبادرات، رغم نطاقها المحدود وعدم وجود تنسيق كامل بينها، يمثل إستراتيجية واضحة لزعة عقبة التبعية التاريخية القائمة بينها وبين النظام السوسيولساني الرسمي.

إن هدف المستوى في الفصل السابع من كتابه محدد جدا، فهو يصف فيه طرق كتابة العربية المغربية الراهنة، كما يحلل دور كتابة العربية المغربية في عملية توحيد هذه اللغة. ولتحقيق هذا الهدف، يعتقد الباحث أن علاوة على وصفها اللغوي، لابد من تحليل الأنواع والوظائف التي تمثلها العربية المغربية في أيامنا هذه. وبالتالي يقدم المستوى أمثلة للأدب بالعربية المغربية (الشعر والمسرح والرواية). ثم يحلل أستاذ اللسانيات الاجتماعية استخدام العربية المغربية في الصحافة (إما كاملا أو جزئيا) وعلى الإنترنت والشبكات الاجتماعية. بالرغم من أن هذا الموضوع يعتبر من بين الاتجاهات الأكاديمية الأكثر انتشارا حاليا، فإن الباحث لا يتطرق إليه تطرقا عميقا. أخيرا في القسم 7.6، من هذا الفصل يتناول الباحث موضوعا مثيرا

للاهتمام وهو "سيمولوجيا الفضاء العمومي". ففيه يصف طريقة استخدام هذه اللغة في الإعلانات واللافتات المعلقة داخل أو خارج المؤسسات العمومية والمحلات التجارية الخاصة.

في الفصل الأخير من هذا الكتاب، يصف المستوي طرق كتابة العربية المغربية وصفا لغويا تقليديا ويركز على الجوانب المورفونحوية والمعجمية والصواتية والإملائية. كما في الفصل السابق، يقدم المستوي أمثلة لطرق كتابة العربية المغربية من الأدب والصحافة ومن مختلف مناحي الحياة العامة والمجالات الرسمية (إعلانات على الطرق وحملات التشجيع على المشاركة في الانتخابات). أخيرا وليس آخرا، يحلل الباحث مقطعا من كتاب لتعليم العربية المغربية لغير الناطقين بها للدكتور عبد الله الشكري (2011)، وهو من الأساتذة المختصين في تعليم هذه اللغة لغير الناطقين بها.

بعد قراءة كتاب المستوي، تخطر على بال القارئ قضية قد تُعتبر سهلة ومعقدة في الوقت نفسه، وهي عنوان الكتاب. ففي رأينا، يعالج الكتاب موضوع اللسانيات الاجتماعية للمغرب أو للـ"مَغْرَبَة" أكثر مما يعالج اللسانيات الاجتماعية للعربية المغربية، كما ينص العنوان. فلا شك أن نطاق تحليل الكتاب يتجاوز لغة فردية، وهذه نقطة يركز المؤلف نفسه عليها عدة مرات خلال كتابه. أخيرا أود أن أذكر كذلك بوجود بعض الأخطاء الشكلية في الكتاب (مثل أخطاء مطبعية وعدم التناسق في وضع قائمة المصادر). غير أن هذه العيوب تعود إلى دار النشر وليس إلى المؤلف -الناطق بالعربية والمتقن للإسبانية- الذي بذل جهدا جهيدا في استخدام الإنجليزية كلغة للنشر من أجل توسيع نطاق نشره وقراءته دوليا.